« الفكر التربوي عند مالك بن نبي بين ثنائية الحضارة والتربية »

د. إبتسام غانم

المدرسة العليا لأساتذة التعليم التكنولوجي بسكيكدة - الجزائر

(البريد الإلكتروني: basma_21@live.fr)

ملخص: تكمن أهمية دراسة موضوع الفكر التربوي في علاقته بثنائية الحضارة والتربية عند المفكر الجزائري مالك بن نبي كونه واحدا من أساطير الفكر الحضاري في العالم العربي والإسلامي على حد سواء، الشيء الذي جعله يحتل مكانة مرموقة بين المفكرين العالميين، لأن كتابات مالك بن نبي لم تتطرق للقضايا الإشكالية التي تعني المسلمين العرب لوحدهم بل كان يكتب للبشرية جمعاء باختلاف أجناسها وأطيافها.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي، الحضارة، التربية، الثقافة، الفكر التربوي.

« *Malek Bennabi's education thought between the dualism of civilization and education* »

Dr. Ibtissem Ghanem

Higher School of Technological Education Professors in Skikda, Algeria

(Email: basma_21@live.fr)

مقدمة:

ارتأيت أن أتناول في مقدمة هذه المقالة العلمية لمحة مختصرة عن فكر وشخصية مالك بن نبي؛ هو مالك بن الحاج عمر بن خضر بن مصطفى بن نبي، ولد في مدينة قسنطينة – إحدى المدن الجزائرية – في السادس من ذي القعدة من سنة 1323هـ الموافق للثامن والعشرين من كانون الثاني/ يناير من سنة 1905م. وهو يرى أن ولادته في تلك الفترة من الزمن مكنته من الشهادة على القرن حيث أتيحت له الفرصة للاتصال بالماضي والمستقبل، فيقول في ذلك أن من ولد بالجزائر سنة 1905م يكون قد أتى في فترة يتصل فيها وعيه بالماضي الممثل في أواخر شهوده، وبالمستقبل المتمثل في أوائل صائغيه. ومن هنا ندرك السبب الذي جعل مالكاً يطلق على مذكراته اسم: مذكرات شاهد القرن. حيث يرى أن التكوين الفكري للإنسان يمر بمراحل ولاشك يرتقي من خلالها حتى يصل إلى مرحلة النضج والعطاء فهو بمثابة البناء ينطلق من القواعد والأسس إلى الأعلى ولاسيما إذا توافرت لدى الشخص الاستعدادات الفطرية التي تتيح له السير في طريق بناء الفكر وتطوره التطور السليم. وقد كان مالك يحمل في نفسه استعدادات فطرية أهلتها لاكتساب الصفات العلمية التي طبعت انتاجه الفكري فكان بذلك مدرسة من مدارس الفكر الإسلامي المعاصر. وقد استمد مالك مصادر تكوينه الفكري من ثلاث مصادر (العويسي، 2012، ص232) ألا هي:

المصدر الأول: التكوين الفكري في البيئة الجزائرية (ثلاث بيئات محافظة من القطر الجزائري).

المصدر الثاني: التكوين الفكري في البيئة الفرنسية (الدراسة والتحصيل العلمي والتنوع الثقافي).

المصدر الثالث: التكوين الفكري في العالم الإسلامي (قراءة الصحف والمجلات والكتب، والحج).

وعليه فإن هذه المقالة العلمية سوف تتناول ثلاث محاور تبعا للقضايا الإشكالية المعالجة والتي مفادها:

القضية الأولى: الحضارة عند مالك بن نبي

أخذ مفهوم الحضارة عند مالك عدة أبعاد وزوايا بحثية، وكثرت التعريفات المفسرة لها عنده فهو يعرفها بتعاريف متغيرة في كتبه المختلفة بحسب الموضوع الذي يبحثه وتموقعاتها المعرفية والفكرية، وسياقاتها الاجتماعية.

1 الحضارة كمجموعة من القيم وكوظيفة:

عرف مالك بن نبي الحضارة كمجموعة من المبادئ المتداخلة التي تساعد الإنسان على التطور والنمو إذ يقول: الحضارة في الواقع هي:

"جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره وهي عنده تشمل مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له، في هذا الطور أو ذاك من أطوار النمو". (بن نبي، 1991، ص 42-43)

2 الحضارة جوهر:

يتلخص جوهر الحضارة في: " أن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة".

وذهب مالك بن نبي أبعد من ذلك من أجل التوغل في تحليل جوهر الحضارة وارتباطها مع الثقافة إذ يقول:

"إن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في جوهره تفكير في مشكلة الثقافة". (بن نبي، 1984، ص100)

وبذلك تكون الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموعة من القيم الثقافية المحققة، التي تأخذ في النهاية مهمتها التاريخية، تقوم بوظيفة الدم للكائن الحي. وتنقل أفكار الجمهور الشعبية، وأفكار القادة الفنية، وهذان العنصران هما اللذان يغذيان عبقرية الحضارة.

3 الحضارة من الناحية البيولوجية:

لكون حضارة القرن العشرين لها مشتملاتها المادية والروحية، فلا يمكنها أن تبني شيئا وتترك الآخر، أي أنه لا يمكن أن تبنيها روحها وأفكارها وثروتها الذاتية وأذواقها، هذا الحشد من الأفكار والمعاني التي لا تلمسها الأنامل والتي لا توجد في الكتب أو في المؤسسات، لكن بدونها تصبح كل الأشياء التي تبنيها فارغة دون روح وبغير هدف وهو بوجه خاص تمنحنا ذلك العديد الهائل من العلائق التي لا توصف، والتي تبعثها أي حضارة داخل أشيائها وأفكارها من جانب وبين هاتين المجموعتين والإنسان من جانب الحضارة من هذه الناحية:

"هي مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي (البيولوجي) حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري، تولد وتنمو روحيا، فعندما نشترى منتجاتها فإنها تمنحنا هيكلها وجسدها وروحها". (بن نبي، 2000، ص48)

القضية الثانية: التربية عند مالك بن نبي

لم يتطرق مالك بن نبي إلى مفهوم التربية بشكله المعرفي الإبتسمولوجي المتعارف عليه عند علماء التربية والاجتماع، لذا كان من الصعوبة تحديد هذا المفهوم. ويرجع ذلك إلى عدة أسباب:

- * لم يتحدّث عن موضوع التربية في مؤلفات بشكل مباشر وصحيح.
- * لتداخل معنى التربية مع معنى الثقافة عنده.

ورغم ذلك وإن لم يتضح مفهوم التربية بشكل جلي وواضح في كتاباته، إلا أننا نستطيع أن نستنتج مجموعة من الأفكار التربوية والمضامين ذات العلاقة من خلال مؤلفاته لما تتضمنه من قيم تربوية ذات أبعاد فكرية وسوسيولوجية. وإن تداخل معناها في كثير من الأحيان مع مفهوم الثقافة الذي يعد مفهوما محوريا في فكر مالك بن نبي في بناء الإنسان وتغييره.

ويظهر هذا التداخل بين الثقافة والتربية عند بن نبي في قوله:

" إن من أوليات واجبا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي، ولذلك يجب أن نجدّها عاملا تاريخيا لكي نفهمها، ثم نظاما تربويا تطبيقيا لنشرها بين طبقات المجتمع".

من هنا يأتي لنا تحديد مفهوم التربية عند مالك بن نبي والذي يدل على أنها عملية تثقيفية متواصلة، وتتمثل عملية التثقيف هذه في تلك العملية النفسية التي تقوم في أولى مهامها بتركيب عناصر ثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد أي في بنية إنسان ما بعد الحضارة.

(1) التربية كعملية:

مفهوم التربية يتعلق بتعليم الأفراد من الجيل الجديد كيف يسلكون في المواقف الاجتماعية المختلفة على أساس ما يتوقعه منهم المجتمع الذي ينشئون فيه، أي أن التربية هي علمية تعليم وتعلم لأنماط متوقعة من السلوك الإنساني. (النجي، 1962، ص 79)

(2) التربية كمشكلة:

يقترح مالك بن نبي مجموعة المفاهيم والمصطلحات ذات العلاقة الترابطية أو التقاطعية مع مفهوم التربية، وكل واحد منها يشتمل على معنى ودلالة ترتبط بالإطار المعرفي التي نشأت فيه فالتربية تستمد مشروعيتها واستمراريتها من المجتمع والفكرة الدينية التي تقوم بعملية تكييف المصطلح ونقده إذا حاد عن المبدأ الأخلاقي فهو يؤكد، إن المجتمع يواصل تطوره من خلال الفكرة الدينية التي أظهرته إلى الوجود.

وهي إستراتيجية متكاملة محكمة البناء رصينة التماسك لها ارتباطاتها مع كل متغيرات المجتمع وتنطلق من تغيير الإنسان نفسه، لا تكتفي بتعليم الكتابة والقراءة وإنما التفاعل دخل نسق مجتمعي واحد، هدفها البعيد هو تعليم الإنسان قيم التحضر فيقول:

"ليست التربية مجموعة من القواعد والمفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، على عالم الأشخاص، وعالم الأفكار وعالم الأشياء. وليس هي من إنتاج المتعلمين وبحار العلوم، الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم، دون أن يلمّوا بما تترجم عنه هذه الكلمات من وقائع، خيرا كانت أم شرا، أو أولئك الذين يعرفون جميع المبادئ والتعاليم التي جاءت في الإسلام، دون أن يستطيعوا تطبيق مبدأ أو تعليم واحد لتغيير أنفسهم أو تغيير بيئتهم". (بن نبي، 2000، ص ص 100-101)

(3) التربية كتعلم:

إن اقتفاء أثر الماضيين وترسم خطاهم تؤدي إلى تعلم أنماط سلوكية مختلفة فالطفل ينتقي من المجتمع الذي يعيش فيه الأفعال والتصرفات النمطية في إطار المثير والاستجابة بمعنى أن الفرد يمر بعملية تعليمية يكتسب نتيجة لها الاستجابات السلوكية المختلفة التي يواجه بها مواقف الحياة المختلفة على أن هذه المثيرات تختلف من مجتمع إلى مجتمع وتختلف بذلك أيضا الاستجابات التي تترتب عليها، وهكذا تتخذ المثيرات الواحدة منها معاني ومفاهيم مختلفة باختلاف البيئات الاجتماعية أي باختلاف التربية التي تسود هذه المجتمعات.

(4) التربية كنمو للفرد:

بمعنى أن الإنسان يولد ضعيفا من الناحية المورفولوجية والنفسية الاجتماعية، فتعمل التربية على تنمية الجانبين، والعناية بهما عن طريق التفاعل معهم، ويعتمد هذا التعلم على عدم نضج الطفل ومرونته مما يجعل الآباء يستغلون هذه المرحلة للوصول به إلى النضج من الناحيتين الجسمية والاجتماعية فالنمو عملية مستمرة ومتزايدة تتجه إلى تحقيق هدف معين وهو الوصول بالطفل إلى فرد بالغ قادر على التكيف والتفاعل مع البيئة الاجتماعية والمادية.

(5) التربية كعملية تحضر:

يؤكد مالك على ارتباط التربية بالتحضر كسلوك اجتماعي، وكمنهج تربوي قابلا لتطبيق والممارسة يهدف إلى تجسيد معاني التحضر يتأسس على فلسفة أخلاقية تربوية، فالتربية ليست مجموعة من القواعد والمفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، على عالم الأشخاص وعالم الأفكار، وعالم الأشياء. بل هي:

" وسيلة فعّالة لتغيير الإنسان، وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطها المشترك في التاريخ".

(6) التربية كعملية اكتساب الخبرات:

يولد الإنسان فردا قابلا ومحتاجا للانتماء إلى الجماعة الإنسانية من أجل التكيف والاندماج من جهة، ومن جهة ثانية لما تعود عليه من فائدة من خلال عملية الانضمام إلى جماعة تقبله من أجل استقراره النفسي، واكتساب القيم والاتجاهات التي تؤهله إلى الانتماء إليها كعضو فاعل فيها بغية بناء المجتمع وتماسكه.

القضية الثالثة: بين التربية والثقافة والحضارة

(1) إن التربية مقتصرة على الإنسان، وهي عملة تبدأ من ولادته إلى نهاية أجله، وقد عرفها مالك بن نبي على أنها: "عملية تثقيف متواصلة" فهي المرحلة الأولى التي يعتمد عليها في العملية التثقيفية كون أن المجتمع يعيش في أزمة أخلاقية لا تسمح له بتسلق هرم الثقافة، وبالتالي النتيجة لا محالة شعب لا ثقافة له، وبالتالي انعدام الجسر الذي يوصله للحضارة.

(2) الثقافة تتدخل في شؤون الفرد، وفي بناء المجتمع، وتعالج مشكلة القيادة كما تعالج مشكلة الجماهير، فهي ذلك الدم الذي يسري في جسم المجتمع يغذي حضارته. (بن نبي، 2000، ص78)

(3) أما الحضارة فهي تشمل مظاهر الإنتاج البشري وغالبا ما يحددها سلوك الإنسان وطريقة معيشته وتفاعله مع بيئته، وتختلف كل حضارة في مظاهرها عن الحضارات الأخرى فكل حضارة سواء كانت قديمة أم حديثة مظاهر مميزة، فالحضارة تشمل كل ما يتعلق بالنظم الاجتماعية والسياسية والفكرية والفنية، فهي تضم جميع نواحي الحياة من مظاهر البداوة إلى حياة القرية والمدينة، وتطور هذه الحياة ونموها وازدهارها. فالحضارة هي من خلق الإنسان، وهي نتاج ما قدمته الأجيال من مجهودات كبيرة ككنز ثقافي للأجيال يمتلكونها، وبهذا يتميز الإنسان عن باقي المخلوقات الأخرى. إن ثمة ارتباط وثيق بين كل من التربية والثقافة والحضارة، حيث أن التربية هي الثقافة في منظور مالك بن نبي ولكل حضارة ثقافتها الخاصة بها.

فإذا كانت الثقافة هي تعلم الحضارة، أي استخدام الملكات الضمير العقل في عالم الأشخاص، والعلم هو في النهاية نتاج الحضارة، فإن الهدف من التربية هو كيف نعلم الإنسان كيف يتحضر وكيف يعيش مع أقرانه وكيف يكون معهم شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ.

القضية الرابعة: الفكر التربوي المعاصر عند مالك بن نبي

(1) مفهوم الفكر التربوي المعاصر عند مالك بن نبي:

يعتبر الفكر التربوي أحد صور الفكر على وجه العموم، وهو وليد حركة المجتمع في بنيته الأساسية وإفرازها، فعلى صفحاته تنعكس الظروف الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وتشكل اتجاهاته ومساراته بما تتخذه هذه الظروف من مسارات واتجاهات. هو دراسة لآراء المربين والمفكرين في المتروك من مؤلفاتهم فيما يتعلق بالعلوم وفلسفتها وأهدافها وطرق تحقيق تلك الأهداف، والفكر المنفرد هو (الفعل الإنساني) الذي يقوم على التأمل والإدراك، ومن ثم الاستنتاج والمقدرة على الاختيار في المشاكل والمسائل من مجرد التأمل أو بعد الملاحظة والقياس.

الفكر التربوي مجموعة المسلمات والأفكار التي تؤلف النظرية الواحدة أو النظريات المتقاربة، والتي بدورها تعتبر المرجعية والأساس لوضع الاستراتيجيات والبرامج العملية في ميدان التعليم، فهي جهود في الجانب النظري يتوقع أن تكون ذات تأثير وفاعلية في الجانب العملي للتعليم. (الحوالي، 2018، ص 9-10)

(2) طبيعة الفكر التربوي المعاصر عند مالك بن نبي:

يرى مالك أن الإنسان هو محور العملية التربوية وطبيعته الممثلة في: الروح، العقل، الغريزة. ونجد أن هذا الإنسان مندرج ضمن معادلته الشهيرة، مع ضرورة وجود الفكرة الدينية كمحرك لهذه التركيبة.

الحضارة = إنسان + تراب +

أ- الإنسان:

اعتبر مالك بن نبي الإنسان الحجر الأساس في عملية البناء الحضاري، فالمجتمعات الحيوانية لا تنتج حضارة فهي تتصرف وفقا لما تمليه عليها غرائزها وما تقتضيه حاجاتها البيولوجية.

أما الإنسان فلقد كرمه الله عز وجل على سائر الكائنات الحية، وكلفه بالأمانة العظمى يتجلى ذلك في قوله: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}. (الآية 72 سورة الأحزاب)

فجعل الله خليفة في الأرض، قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}. (الآية 30 سورة البقرة)

نستخلص من ذلك أن مكانة الإنسان في القرآن الكريم هي أشرف مكان له في ميزان العقيدة وفي ميزان الفكر.

الإنسان هو الأساس في فكر مالك بن نبي، ومحور اهتمامه في كل أعماله الفكرية ومصدر نجاح أي مشروع بشري في التاريخ أو فشله على مستوى الفرد أو المجتمع ولهذا فهو يؤكد أن الإنسان هو الوحدة الأولى التي تكون المجتمع، فإذا تحرك تحرك معه التاريخ وإذا توقف توقف معه أيضا. (بن نبي، 1986، ص 57)

يقول مالك بن نبي: " إن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة ". (بن نبي، 2000، ص 10)

فالإنسان في نظر مالك بن نبي هو الكائن الحضاري الذي ينتج الحضارة بالتغيير والحركة، وذلك لا يأتي إلا إذا غير نفسه فالتغيير لا بد أن يكون داخلي قبل أن يكون خارجي وأن يكون جزئيا قبل أن يكون كليا وأن يكون فرديا قبل أن يكون جماعيا فلا نستطيع تغيير الآخرين قبل أن نغير أنفسنا " غير نفسك تغير التاريخ".

ب- المجتمع:

المجتمع هو البيئة الذي تتوازن فيها الشخصية القادرة على بناء الفعالية في توفير الطاقة القادرة على تصحيح المسار فهو عبر شبكة العلاقات الاجتماعية هو العمل التاريخي الذي يتطور فيه الإنسان من كونه فردا ليصبح شخصا، أي بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزاعات تربطه بالمجتمع.

فالمجتمع هو الجماعة التي تعبر عن خصائصها بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالوسائل التي تسعى إليه من وراء التغيير أي أن تنظيم ذو طابع إنساني يسير طبقا لإلهام ثقافته فحينما تفقد الثقافة إلهامها يفقد المجتمع مسيرته ليصبح جمعا من البشر يقع في فريسة الشبيبة والمجهول، يقول مالك بن نبي:

" إن المجتمع ليس مجرد جمع لعناصر أو أشخاص تدعوهم غريزة الجماعة إلى أن يتكتلوا في إطار اجتماعي معين، هذه الغريزة وسيلة لإنشاء المجتمع وليست سببا في إنشائه، إذ يضم المجتمع أكثر من مجرد مجموعة من الأفراد الذين يؤلفون صورته، يضم عددا من الثوابت التي يدين لها بدوامه وبتحديد شخصيته في صورة مستقلة تقريبا عن أفرادها". (بن نبي، 1986ب، ص11)

المجتمع عند مالك بن نبي يحمل في داخله الصفات الذاتية التي تضمن استمراره وتجعله يحتفظ بشخصيته ودوره في التاريخ وهو بذلك لا يمكن اعتباره مجردا من الأفراد وإنما هو اشتراك هؤلاء الأفراد في اتجاه واحد من أجل قيام بوظيفة معينة ذات غاية.

ج- الفكرة الدينية:

ركز مالك بن نبي كثيرا على الفكرة الدينية في بناء الحضارة فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية فينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها. فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا أو هي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غبي بالمعنى العام فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلى حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيدا عن حقبته إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها اسمي معاني الأشياء التي تهيم عليها عبقريته وتتفاعل معها. (بن نبي، 1986ج، ص56)

3) أهداف الفكر التربوي عند مالك بن نبي:

أ- أهداف دينية وروحية:

تتمثل في إعداد الإنسان المؤمن وتدعم القيم الروحية والدينية في الإنسان، وهي جملة من الصفات والمتغيرات التي يجب تنميتها من أجل بناء كيان إنساني قادر على الانخراط في منظومة أخلاقية واجتماعية تهدف إلى إخراج الفرد من صفاته الوراثية إلى شخص مكيف منوط بعملية التحضر تبعد به عن عوالم القابلية للاستعمار ومن جملة هذه المتغيرات نذكر:

*** النمو الكامل للفرد:** حين ينبج الرجل أبناءه وينفق عليهم ليغذوهم، فما يقوم بهذا إلا بثلاث واجبه نحوهم. لأنه مسؤول أن يقدم لنوعه رجالا، وأن يقدم لمجتمعه أعضاء اجتماعيين فيه، وأن يقدم لدولته مواطنين وأياما رجل قادر على الوفاء بهذا الدين الثلاثي وتقايس عنه، فهو مذنب و مقصر. تهدف التربية إلى تكوين الإنسان الكامل المثالي الذي تجسدت فيه قيم الحضارة أو إنسان الحضارة من خلال التغيير الإرادي النفسي، لذا فالمسلم لا يستطيع أن يغير ما حوله إن لم يغير أولا ما بنفسه، فهذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها قانونا إنسانيا وضعه الله عز وجل في القرآن. (بن نبي، 1991ب، ص58)

*** تصفية التراث من الشوائب:** لا يمكن للإنسان أن يواصل في تأدية مهامه التربوية دون أعمال النقد في ترسبات الماضي القديم والحاضر الجديد، خاصة فيما يتعلق بقضية التراث الذي تزخر بها الثقافة العربية الإسلامية. (حنفي، 1992، ص13)

*** غرس الروح الإسلامية:** من الأهداف التربوية التي يجب أن تقوم التربية بغرسها في النشء هي ذلك الجانب المتعلق بالروح الإسلامية، إذ أن بداية نشأت هذه الحضارة كانت بالفكرة الدينية التي غرست في حامل هذا الدين الأول وانبثقت عنها، ولكي تستمر الحضارة

يجب أن لا تخبو جذوة الروح فالفكرة الدينية تعبر عف حاجات النفس الإنسانية في مختلف ملكاتها ومظاهرها، حتى أنه كما صح أن يعرف الإنسان بأنه: (حيوان مفكر) أو أنه (حيوان مدني بطبعه). إن غرس الروح الإسلامية في نفس المسلم تمكن الدين من لعب دوره الاجتماعي، هذا الدور منحصر في القيام بتركيب يهدف إلى تشكيل قيم تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة لحضارة، وهذا التشكيل يجعل من (الإنسان) العضوي مرحلة اجتماعية، ويجعل من (الوقت) الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة (بساعات تمر). الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط مجالا مجهزة مكيفا تكييفيا فنيا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة تبعا لظروف عملية الإنتاج.

*** مساعدة الفرد على التكيف:** إن التربية في فكره عنده قابلة للتحقق في المجتمع بمختلف مناهج والوسائل والطرق، وتتكيف مع مختلف الأحوال والأزمات والأمصار دون أن يؤثر ذلك في جوهرها، ولذلك لم يكن للتربية قيم وقوالب منظمة جاهزة، وإنما أمرت بضرورة تحقق أهدافها بأشكال مختلفة تستجيب لحاجات الزمان والمكان والأحوال، فقد تأخذ معنى الإنفاق والأمانة تارة وقد تأخذ مفهوم التكافل والزكاة تارة أخرى. ومن مظاهر التكيف في التربية عند ابن نبي، قابليتها للتداول مع كل الأنماط والسيقات الاجتماعية، ومع كل وسائل والوسائط التربوية. وكذلك الاستجابة لحالة متلقيها العمرية النفسية، الوجدانية والعقلية، فلكل أسلوبه وطريقه ومنهجه. (برغوث، 2004، ص38)

*** تنمية الشعور بالذات:** يتمثل الشعور بالذات في فقه الحضارة عند مالك بن نبي في أن يعرف الإنسان خصوصيته الثقافية وبعده الحضاري، وطبيعة الصراع بين الأمم والشعوب وما هي وسائله وأهدافه الشيء الذي يفضي إلى وعي كامل بالمشاريع الاستعمارية، ومعرفة منهجية لطرق الخروج من بوتقة التخلف، ورؤية شاملة وواعية بأساليب التنمية والتطور. فمالك بن نبي بما يملكه من نظرة ثاقبة وفكر محمص للحضارة والتحضر قد أسس منهجا فكريا ومعرفيا مستقلا غرضه الانتقال بالمجتمع المتخلف إلى مجتمع متحضر بدايته من غرس "مقولة الوعي" في ذهن الإنسان الذي مالم يدخل إلى حركية التاريخ، فالحضارة تربية وتنمية ووعي وفكرة دينية وواجب ومسؤولية ... وغيرها من المفاهيم الأخرى المفتاحية التي يدخل بها الإنسان من خلالها الإنسان إلى فهم الواقع المحيط به، فقد حاول مالك بن نبي في جل كتاباته أن يبين للناس بواقعهم الذي يعيشون فيه، ويعرفهم بأساليب الاستعمار التي لا تنتهي بالاستقلال. (بن نبي، 1991، ص 11)

ب- الأهداف الأخلاقية والمعرفية:

تتمثل في إعداد الإنسان على خلق عظيم وتدعيم القيم الأخلاقية والمعرفية التي تشكل التربية، وذلك من خلال المتغيرات التالية:

*** تقديم الواجب عن الحق:** التاريخ لا يبدأ من مرحلة الحقوق، بل من مرحلة الواجبات الخاصة بكل دقيقة، ساعة وبكل يوم.

ينفر الفرد من القيام بواجباته ويميل بطبيعته إلى نيل حقوقه والأمة التي تصاب بمرض (السيولة) وعاشت قروناً من التخلف، فإن من أهون الأشياء عليها التي لا تكلفها كثيرا هو المطالبة بالحقوق ونسيان واجباتها. (بن نبي، 2000، ص 131)

*** تكريس المنطق الرياضي لدى الفرد:** أثر التكوين الرياضي والتخصص العلمي لابن نبي على أغلب تحليلاته الاجتماعية والنفسية كانت جل كتاباته مشبعة بالروح العلمية، فقد اتبع منهاجاً يجمع بين:

- الجانب العقلي الديكارتي والذي هو آخر المطاف مستوحى من فلسفة الغزالي.
- الجانب الاستدلالي المستوحى من المنهج الرياضي الذي كان مالك بن نبي مغرماً به وحريصاً على تطبيقه في أبحاثه وتحرياته العلمية. وكان حريصاً على صياغة النتائج التي يتوصل إليها في شكل قوانين رياضية.
- الجانب التجريبي الاستقرائي المستوحى من العلوم الفيزيائية والطبيعية.
- الجانب الحدسي المستوحى من التصوف.

وجاءت تحليلات مالك على شكل معادلات رياضية الغرض منها إعطاءها صفة اليقين، فقد صاغ الحضارة وتطورها، والمعادلة النفسية والاجتماعية على شكل منطق رياضي يعصم الفكر من الخطأ والزلل.

*** التجديد التربوي:** دراسة حركة الفكر التربوي تساعد في رصد تطوراته في الرؤية المتبصرة والواقعية لعمليات التحديث، حيث تعتبر عمليات التحديث التربوية محاولة لـ (عنصرة النظام التربوي)، وذلك عن طريق إدخال تقنيات ووسائل تربوية حديثة لتطبيق فكر تربوي سليم، ويتم هذا الأمر بالسعي للوصول لغايات بعيدة لمجاراة روح العصر في ضوء من الواقع الاجتماعي والإمكانات البشرية والمادية والفنية السائدة في المجتمع (القيم الأخلاقية).

*** تقويم وتعديل الفلسفات التربوية:** تطور الفكر التربوي يعطي صورة تقريبية عن النظريات التي تحكم وتسيطر على المجتمعات الإنسانية، حيث أن رصد حركة وفلسفة بناء الإنسان الذاتية وطرق تفاعله مع محيطه من مجتمع وطبيعة، أمر في غاية الأهمية للوصول وتحقيق المرجو من هذه الدراسة واستخلاص النتائج الأدق منها. (الحولي، 2018، ص 14)

القضية الخامسة: تأثير فكر مالك بن نبي في العالم والتقييمات الموجهة إليه

يعتبر مالك بن نبي من بين المفكرين الذين بلغ صدامهم في العالم العربي والمشرق بزياراته للعديد من البلدان، الالتقاء بمفكرين، حضور الكثير من الملتقيات. كما كان تأثيره عن طريق كتبه والدراسات التي صدرت عن كتبه وشخصيته في العديد من المجالات في دمشق، ليبيا، بيروت، المملكة العربية السعودية، الولايات المتحدة، بريطانيا وماليزيا حيث ساهمت في إثراء العقل والثقافة وكونت العديد من النخب. وكان لفكره أثر بارز في تأسيس ملتقيات الفكر الإسلامي لتبليغ صوته في العالم ومن هنا نتساءل: ما مدى أثر فكر مالك بن نبي في العالم العربي والعالم الغربي؟ وما مكانته في العالم؟

1) في العالم العربي:

كان لمالك بن نبي مكانة بارزة بين تلاميذه وطلبته في العالم العربي والتي استمرت طويلاً بعد وفاته في تبليغ صوته، وكان اهتمام واسع بفكره وشخصيته حيث تناول العديد من المفكرين والباحثين دراسات حول مالك بن نبي ومن سن هذه الدراسات نجد:

- التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي للدكتور علي القرشي.

- فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي للدكتور سليمان الخطيب.
- مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا للدكتور أسعد السحمراني.
- مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرلوند توينبي للأستاذة آمنة بن تشيكو.
- موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي للأستاذ الدكتور الطيب برغوث.
- نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث للدكتور يوسف حسين.
- فكر مالك بن نبي للأستاذ المحامي اللبناني المشهور عمر كامل مسقاوي.
- مالك بن نبي حياته وفكره للباحث الدكتور عبد الله العويسي.
- مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي للدكتور حمودة سعيدي.
- مالك بن نبي والاتجاه الحضاري في الحركة الوطنية الجزائرية للدكتور محمد العربي معريس.

(2) في العالم الغربي:

إن أثر فكر مالك بن نبي ليس في العالم العربي فقط، وإنما كان تأثيره كذلك في العالم الغربي ومن بين ما تبني فكر مالك بن نبي نجد "ماليزيا".

عانت ماليزيا أعوام طويلة من الاستعمار الذي نهب خيراتها وعزز في أبنائها الجهل والتخلف وخضعت لوطأة الاستعمار لمدة خمس مائة عام، خلال هذه الحروب وآثارها السلبية كانت بداية حراك المجتمع الماليزي، نحو النهضة في ظهور حركات التجديد والإصلاح الديني، بعد أن اختلفت عقائد الناس. تأسست الحضارة الماليزية على تغيير عالم الأفكار أولا وذلك بنشر العلم الديني السليم، والاستفادة من تجارب البلاد الإسلامية التي سبقتها في هذا النهج.

وهكذا تم تحريك الأفراد فكريا، حصلت من خلاله ماليزيا على الاستقلال والحرية وبذلك نشأت دولة مستقلة عندما ارتقى عالم أفكارها لمستوى القضية مما انعكس على عالم الأشخاص والأشياء. وتكونت بذلك عناصر بناء الحضارة كاملة عند ماليزيا، كما وضحتها مالك بن نبي.

كل نتج حضاري = إنسان + تراب +

إن ماليزيا بنت الإنسان، ثم حررت الأرض وجعلت عامل الزمن نصيب عينها وأصبحت ماليزيا نموذجا يحتذى به، فالنهضة التي قادها **مهاتير محمد** تحرك لها المجتمع بأسره كبيرا وصغيرا مسلما وبوذا، للقيام بعملية التنمية والتغيير لتصبح ماليزيا في مصاف الدول المتقدمة كدولة إسلامية، وإذا أردنا أن نسوق دليلا على ذلك أن **"مهاتير محمد"**، الرئيس السابق لماليزيا اعترف بأن الفضل في نهضة ماليزيا يعود إلى أفكار مالك بن نبي وإلى ما تضمنه كتبه القيمة من توجهات فكرية صائبة.

(3) تقييم نقدي في فكر مالك بن نبي:

لقد تعرض مالك بن نبي كغيره من المفكرين إلى انتقادات عديدة من قبل النقاد والباحثين في مرجعيته ومعالمه وحتى في أهدافه، ومن بين الانتقادات نذكر:

*** ضعف ثقافته الشرعية:** لم يتصل بعلماء عصره ليستفيد منهم، ورغم اعترافه بأهمية جمعية العلماء المسلمين إلا أن علاقته بها كانت فاترة، ويعترف بأنه كان مخطئاً في هذا. وكانت دراسته للإسلام نابعة من قراءاته الشخصية قليلة إذا ما قيست بقراءاته للفكر الغربي، وهذا ما جعله يخطئ في أمور كثيرة، سواء كانت في الفقه والأحكام، أو في النظرة لبعض جوانب التاريخ الإسلامي، ونجد من رموز الثقافة عنده في العصر الحديث جمال الدين الأفغاني، كما أنه كان معجب بالهند وعلى أساس عدم وضوح توحيد الألوهية ظن أنه من الممكن اتصال العالم الإسلامي بروحانية الهند مع أنها لا تطبق شرع الله.

*** النظرة السطحية للأحداث:** كان مالك بن نبي عميقاً في فهم غور الاستعمار وأساليبه الخفية وعميقاً في معالجته القابلية للاستعمار عند المسلمين، فكيف للعالم العربي عاش ويلات الحرب والاستبداد السياسي وكرامة الشعب المسحوقة، فإنه لم يدخل أو بنظم إلى عالم السياسة، حيث أنه ركز على الواجبات وأعطى لها قيمة عن الحقوق. (بن نبي، 1986، ص 22)

*** الإنسانية والعالمية:** قام مالك بتوحيد الإنسانية في مجتمع عالمي، فإن العالم دخل إذن في مرحلة لا يمكن أن تحل فيها أغلبية مشكلاته، إلا على أساس نظام الأفكار، وهذا المفهوم للإنسانية مفهوم وهمي، يراد به محو الشخصية الثقافية الحقيقية لكل مجتمع أو أمة، فإذا كان العالم قد تقارب وانتشرت الأفكار في كل مكان، فيستفيد المسلمون من ذلك في نشر دينهم، إما أن يتوحد العالم في مجتمع واحد، فهذا مفهوم ذهني مجرد.

(4) شهادات في فكر مالك بن نبي:

- يقول عنه تلميذه وصديقه المحامي عمر كامل مسقاوي: " تنطلق أفكار بن نبي، لا تضيف في المجتمع الإسلامي معرفة جديدة بالفقه، أو علماً مستخلصاً من تجارب للحضارة الحديثة، بل لتنظيم هذه المعارف في مفاهيم تربوية تسيّر بالإنسان خطوة متقدمة، فهو يطرح الإسلام عملهم لقيمنا، وقادر على استعادة دور الإنسان مبراً من ثقل الحضارة".

- أما الأستاذ الشيخ " محمد المبارك " فقال عنه : إنه عربي مسلم، ليس هو من المجتمع الأوروبي الذي عاش فيه بجسمه في شيء، وكان تعمقه في الثقافة الأوروبية سبباً في تحرره من نفوذها، ومعرفة لمصادرها، ولدوافعها الخفية، وبواعثها العميقة، لقد تجمعت في قلبه ونفسه، في عاطفته، وشعوره، وفي عقله، وتفكيره مآسي أولئك الملايين من البشر الذين يعيشون على أرض الجزائر، ضحايا لمدينة القرن العشرين". (السحمراني، 1984، ص 22-21)

" استطاع بأسلوبه الذي تفرد به، وثقافته الغربية الواسعة، مع ثقافته العربية الإسلامية، أنه رائد الفكر، البعيد النظرة، القوي الإيمان، المناضل بقلمه في سبيل الإسلام، استقطب بفكره طلائع الشباب العربي."

- أما الأستاذ فوزي الحسن قال عنه: " كان ذا ثقافة واسعة، يجيد الحوار والرد على سائله بشكل مقنع شاف، حتى أنه كان يستطيع تحديد اختصاص السائل العلمي، كان ينشر كتبه لغرض إيصال فكره، ولذلك فهي تباع بسعر زهيد مما يوقعها بعجز يسد من جيبه". (ضيف الله، 2004، ص 28)

- كما قال عنه الدكتور سليمان الخطيب: " إن دراسة عطاء مالك الفكري في إطار المسألة الحضارية يكسبنا عمقا، يرتبط ببنية الفكر الإسلامي المعاصر الذي يمتد بجذوره إلى تراث الأمة الفكري والثقافي الذي صاغته، وبلورت مفاهيمه أصول عقيدية وإيمانية حددتها تعاليم ومبادئ القرآن الكريم والسنة الشريفة". (الخطيب، 1993، ص06)

رغم هذه الانتقادات والسلبيات والأخطاء التي وجهت لفكر مالك بن نبي فإنها لا تمنع من الاستفادة من الإيجابيات لفكره، فمالك بن نبي خبير في نهضة المجتمعات وأمراض المسلم المعاصر، فهناك البعض يقولون: ما دامت هذه آرائه فما الفائدة من قراءة كتبه؟ وهذا يعتبر خطأ فادحا، فنحن نقرأ لإعداد الإسلام والاستفادة منه، فكيف بمفكر كان يسعى بجهده لخير المسلمين مالك بن نبي شخصية كبيرة، فهو يتراجع عن الخطأ إذا تبين له ذلك. (بن نبي، 1986، ص38)

ورغم معرفة مالك بن نبي الدقيقة بالفكر الغربي، وتأثره به أحيانا إلا أن منبعه الأساسي في العالم العربي والإسلامي، هو الدين والإسلام، فالعالم الإسلامي لا يستطيع أن يجد مخرجا إلا في إطار هذا المنبع الأساسي.

خاتمة:

إننا نستطيع من خلال دراستنا لتاريخ الفكر التربوي عبر عديد العصور والثقافات والأزمنة عند الباحثين والعلماء المهتمين به استمداد المواد الفكرية والموضوعات والمقترحات التي تجعلنا نفكر كما فكروا أي تفكير مبني على أسس التجديد المدروس والمخطط والإيجابي، وليس الفكر التربوي الجاهز والمنتج أفضل ما نحصل عليه من معالجتنا وتناولنا لأفكار قدماء المربين بل ما يستثيره فكرهم من فكر. الأهم وليس المهم في هذا الموضوع هو ما يقولونه لنا الآن من خلال ما يثيرونه فينا من التفكير في معضلاتنا التربوية الراهنة والعمل على تنمية وتطوير فكرنا التربوي، وبذلك تكون الأفكار أو النظريات أو المقاربات وكذا الممارسات التربوية الخاصة خامات قاعدية نعتمدها في صياغة فكرنا التربوي المبدع.

قائمة المراجع:

- (1) آيات من القرآن الكريم.
- (2) بن نبي مالك (1984): مذكرات شاهد القرن، بإشراف ندوة مالك بن نبي، طم، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق.
- (3) بن نبي مالك، ترجمة عبد الصبور شاهين (1986أ): وجهة العالم الإسلامي. طم، دار الفكر بدمشق.
- (4) بن نبي مالك، ترجمة عبد الصبور شاهين وكامل مسقاوي (1986ب): شروط النهضة، طم، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق.

- (5) بن نبي مالك، ترجمة عبد الصبور شاهين وكامل مسقاوي (1986ج): ميلاد مجتمع، ط³، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق.
- (6) بن نبي مالك (1991أ): دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ط¹، دار الفكر للطباعة.
- (7) بن نبي مالك (1991ب): القضايا الكبرى، ط¹، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق.
- (8) بن نبي مالك، ترجمة عبد الصبور شاهين (2000): مشكلة الثقافة، ط⁴، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق.
- (9) برغوث طيب (2006): الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية، مركز الرؤية للتنمية الفكرية، دمشق.
- (10) الحولي عليان عبد الله (2018): محاضرة دراسات نقدية في الفكر التربوي المعاصر، كلية التربية/ قسم أصول التربية، الجامعة الإسلامية، غزة.
- (11) الحمراني أسعد (1986): مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ط²، دار النفاس، بيروت.
- (12) حنفي حسن (1992): التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، ط⁴، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.
- (13) النجحي محمد لبيب (1962): الأسس الاجتماعية للتربية، ط²، دار القلم، الكويت.
- (14) العويسي عبد الله بن محمد (2012): مالك بن نبي حياته وفكره، ط¹، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.
- (15) ضيف الله بشير (2004): فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، منشورات المجلس الجزائري.
- (16) الخطيب سليمان (1993): فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، ط¹، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.